

« جين اير » بين مترجمات البعلبكي

بقلم علي زيعور

والقضايا . أي ان «الانا» تقدم في « حقول » مختلفة وفي جميعها ينشأ توتر نفسي يسعى للخفض ويهدف الى اعادة الملاءمة او التكيف بين الانا وحقلها الآتي .

وحتى المرحلة الجديدة في حياة جين اير ، حتى وصولها الى البيت الجديد في تورنيلد عند طالبتها المقبلة « من صفحة ١ - ١٢١ » كانت كل الحلول المقدمة طرقا غير مباشرة فهي اما تكوسية واما استبدالية وتعويضية وجزئية .. الا اننا نسير شيئا شيئا نحو ايجابية تنمو رويدا رويدا وبحذر وحيطه . تماما وبشبه كبير مع ما أظهرته الدراسات السيكولوجية للطفل الفقير في تفاعله وعراكه مع الفسيفساء والعالم « تجربة العالم النفسي بلانت PLANT مثلا » وفي المدرسة والحياة العامة .

العملية اذن دراسة ممتازة حسية وواقعية للانفتاح التدريجي على الثقة ، أو انها مخاض وتحقيق شاق ووثيد لتجربة كفاح «أنا» وحيدة ومتوحدة في معركة تتضح دلائل كسبها بصعوبة وجهد ، وكل ذلك في اطار واقعي . فأتى العمل درسا موضوعيا بواسطة آراء الغير - وذاتيا على الاخص - بواسطة سرد البطلة بالذات - وبهذا فاضواء ذاتية وان تفلتت تعطي أو تدرس « مواقف » و « أوضاعا » ، لا أنا « مجردة » ولا انسان عام مطلق لا وجود له الا في علم النفس العام .

أما المرحلة الثانية فهي أيضا تتابع لوحات رائعة لحياة جين اير في مجتمع جديد ، انها القسم الثاني لكفاح « الانا » في حقل شاق قطبه الرئيسي المستر روتشيستر مالك تورنيلد الموطن الطريف والجميل الذي تألفه جين .. وهكذا حتى تسمع ضحكة غريبة غير طبيعية وغير بهيجية وهنا تبدأ مشكلة ان لم تكن عقدة بالمعنى الكلاسيكي ، وهي البحث عن سبب هذه الضحكة ومصدرها وستكون صاحبها العقبة الرئيسية او الحاجز الذي يمنع حل التوتر والمادة الملائمة للحقل النفسي والاجتماعي . والحواجز الأخرى العيقة - والضرورية لظهور دراسة جين كمعلمة ورفيقة وصديقة وذات شأن - هي ظهور مس اينفرا م مثلا ثم التعرف على المجنونة وظهور دورها كعقبة رئيسية ضد الزواج . وتكون هذه المجنونة زوجة المستر روتشيستر « امرأة فارعة الطول ضخمة الجسم ذات شعر أبيض قائم » ص ٢٩٢ .

هنا تترك جين حبيبها وتقرأ عواطفها وانفعالها تجاه الحب والشق ثم موقفها في حالة صارت فيها تأكل العصيدة التي قال صاحبها « ان الخنزير غير راغب فيها » ص ٥٦ { بعده تلقتي بسان جون ويعرض عليها الزواج ، الا انها تعود لترى روتشيستر حيث تلاقي « سكوت الموت يخيم على القصر » (ص ٥٨٩) فقد التهمت النار بيد المجنونة بيرتا ويكون روتشيستر قد فقد بصره أو صار في وضع أضعف وأكثر حرية . المرحلة الثالثة اذن هي العودة للعذاب بعد ان تعرف سر الضحكة ، والملاحظ ان المؤلفة شارلوت برونتي التي تسرد في جين اير الكثير من وعن حياتها ، تحب عذابها وتسرد لتألم نفسها بنفسها في حلولها النكوسية والانهازمية لتوترها وكأنها تكفر عن ذنب وحتى ان كان كل ما أصاب جين اير قد حدث لها بالفعل .

أما الفصل الأخير - التقسيم لتسهيل الدرس فقط وهو اصطفاي - فهو دعوة جين ولقاؤها مع حبيبها الذي تقول له رغم ما به وما أصابه: « لن أفرقك منذ اليوم يا سيدي ، مدى الحياة » (ص ٦٠٣) . الحب ينتصر ويتغلب على الصعاب ، تماما كما في القصص الخيالية واحلام

« جين اير » كلاسيكية خالدة ، ورائعة تتحدى الزمان . والمؤلفة شارلوت برونتي قمة شامخة وروائية فذة جمعت التحليل الدقيق والتكنيك البديع .

والمترجم منير البعلبكي عملاق في عمله ، وجماعسة في جهوده ومدرسة في اخلاصه وامانته ونشاطيته .

يقال عن التفكيرية العربية انها تقبل المغالاة بل ان اللغة العربية بالذات لغة نعوت ومترادفات ذات رنين وجلبة ، تحتوش الاكثر من الانفعال وال عاطفية التعبيرية . ومهما يكن فان النعوت التي استعملت هنا للقطعة وللمؤلفة موجودة في جميع اللغات التي قرأت أو حوت جين اير ، أما المترجم فان نتاجه الوافر الجني يشهد له ويفرض علينا الاقرار والامتنان . والمعجب في هذا الكتاب الذي يقدمه المترجم حلقة برفقة في سلسلة كنوز القصص العالمي ، هو وجوده بالذات في اللغة العربية التي ما تزال فقيرة الى الكثير من الروائع الادبية العالية وبحاجة اكثر الى العديد من الترجمات القصصية الانسانية الحديثة لاغناء « الحقل » الفكري العربي وتسهيل انفتاحه على الادب الكبرى الغربية وانتفاعه وتأثره بها ومنها .. كم هو كبير ولذيذ ذلك الاحساس بالثققة والبركة عندما نرى في لغتنا قطعة ادبية كبيرة رائعة غير معصورة ولا مصهورة، لها نفس الروح والنفمة والشذا الادبي الموجود في النص الاصيل . ان جين اير موجودة من مدة في اللغة العربية لكن بشكل مكثف ومصور فقد الكثير من الدفاء الذي يشع من الترجمة الحديثة والامينة والكاملة التي يقدمها هذه المرة الاستاذ منير البعلبكي . كما ان احدى المجالات كانت قد قدمت تلخيصا قصيرا للكتاب نفسه بعد بحث جاد ومطول عن المؤلفة والقصة خاصة من حيث انطباقها على القواعد القصصية الكلاسيكية ومدى نجاحها في تقديم الشخصيات وعرض تطور الاحداث وتهية الاجواء واشعاع الروح التحليلية والسير الطبيعي نحو خاتمة انسانية دائمة ملؤها الايمان بخيرية الكائن الانساني وطيبته الايجابية البناءة .

وللمترجمة الضخمة التي بين أيدي القارئ العربي شهرة وصدى في نفسه . فقد لاقى هذا العمل الادبي استحسانا بل تعاطفا قويا مع النفسية العربية ، ولعل السبب الاكبر في ذلك يكمن في تكوين وسرعة انفعال هذه النفسية مع المؤثرات التي تدفع نحو الناحية الحزينة المتألمة من الحياة ، أو ان المشكلة الماطفية والانسانية التي تعالجها شارلوت برونتي مشكلة تمتد الى روح الشرق وسيكولوجيته اكثر مما تؤوب الى غيره فهي اقرب اليه وألصق به وان تجاوزته أو تعدت حدوده لتبحث في نطاق الفرد بالمعنى الشامل والجامع للكلمة .. للشرق احساسه الكبير بعذابه ومن ثم بحثه عما يعذب نفسه اكثر ، كحالة تلك الطفلة المظلومة التي حتى في ساعات هنائها تخلق في اطارها النفسي أو تجلب اليه كل ما يوحي ويحدث الالم والعذاب ، وفي قراءة جين اير نوع من التفرغ الانفعالي والتنفيس العاطفي لابن الشرق الباحث عن الحب والدفاء والشقاء الذاتي للذات . جين اير رائعة انكليزية الا انها عربية شرقية اكثر ثم انسانية عامة اكثر واكثر أيضا وأيضا ..

وتختصر المترجمة في ان «جين» تبدو خلال لوحات متعددة ومتنوعة في بيت ليس بيتها وظروف أقوى منها ، وفي هذه تبدو لنا في تعهها ومشاكلها النفسية وانكاساتها وانكاسات الغير امام نفس الامور

« البؤساء » فقد قدمها بشكلين : الترجمة الاولى بشكل كامل وفي خمسة مجلدات والترجمة الثانية بشكل ملخص . هنا في نقل « البؤساء » قدم المترجم الكثير من التعليقات والحواشي فجاء عمله انفع وأصح وان كانت تلك الحواشي تشغل بال القارئ وتشتت انتباهه الى نواح متفرقة تبعده عن روح الكتاب ومقاصده .

سلسلة اخرى يندمها البعلبكي وتظهر اهتمامه بمشاكل الحاضر الهامة ورغبته في تقديمها للقارئ بأسلوب مبسط ، انها سلسلة قد تسمى المشاكل الحاضرة ، وهي تعنى بتثقيف سريع للقارئ العادي وذات منفعة جلي بلا يب وان اتصفت بالتسرع وتبسيط الامور .

اما السلسلة التي سميها ب : « علم نفسك » فانها اشبه ما تكون بسلسلة الكتب التي تهدف لاشاعة العلم على اوسع نطاق دون ان يفقد شيئاً من زواته وعمقه ، الا انه من الضروري تقديم حلقات اكثر في هذا الباب وتتعدى الشكل الذي هي فيه اليوم فمن الثابت انها تنجح وتكسب القراء وتفيدهم اذا زاد الاعتناء بها وتنوعت موضوعاتها وكثرت أعدادها .



هناك بعض النواحي الصحفية في عمل الاستاذ بعلبكي المترجمي، في تقديم بعض الكتب او الاسراع احيانا في اختيارها . الا ان الميزة الرئيسية لاعماله هي الرزانة والتمهل وحسن الاختيار ثم الامانة في النقل . ولدراسة مدى امانته للنص الاجنبي أخذت بعض العينات : عدة اسطر من كل فصل ، وكانت العينة من منتصف الفصل احيانا لا من اوله ، وبدأت بعض الملاحظات الايجابية ، فقد وقف الى جانبه صديق ترجم صفحة بكاملها واضمح ان المترجم البعلبكي لا يقل تضلماً باللسة الانكليزية عن المؤلف بالذات ، او لنقل أنه فهم واستوعب الى اقصى حد ما تريد قوله وما تود الافصاح عنه ، أما النص العربي ، أو مدى قدرة الاستاذ على صب اللغة الاجنبية وفكرتها واسلوبها في التعبير العربية فلا ريب هنا بالتوفيق او النجاح البعيد الذي قد يعود للتمرس الشديد وكثرة المزاولة لاعمال الترجمة ثم بسبب كفاءة ممتازة وقسرة رفيعة .



قد لا تشعر بترجمة الكتاب ، فقراءة جين أير الذي ناخذه كمثل على مدى دقة الترجمة ، تجعل الانسان يتألم عند الوصول الى نقاط مؤثرة ، ويشعر بشغافية الحزن كأنفعال كلي يلف الطالع في تصاطف عفوي لا شعوري ، هذا الى جانب احساس بانجاس الفرح الداخلي لايجابية البطة في هئاتها وصفاتها . وبكلمة ، لا يعيق الشعور بالحياة مع بطة الرواية في الاطار النفسي العام ، تعرج جمل ولا حوشية كلام أو التواءات اسلوبية .

عدا ذلك لا نشعر أن الكلمات تنقصه فهي تتدفق احيانا كتيصرة كأنها طوع بنائه وحتى في الحالات التي تشف فيها اللغة وتتعرج متعرجة لعواطف فردية حية نامية واحاسيس خاصة صميمية وضرامية. وبالفعل فاننا نشعر بالدفء الادبي والحرارة والحياة التي تشع من لغة شارلوت برونتي الشاعرية الانيقة والرفيعة . . الا ان هذا لا يعني انه لم يلجأ الى خلق الكلمات احيانا والترجمة المفتنة او الذاتية احيانا اخرى، مفردات كثيرة حلوة وجميلة يستعملها منها ما مات أو على الطريق ومنها المدفون والمركب والمنسي كلمات طومار وتيهور واليسار والشهبولوطة « شجرة » وغير ذلك . . الا ان في عمله هذا ما يلفت الانتباه العميق وينلج الصدر لتأديته وقيامه بالمطوب واللازم.

ترجمة فرد قد تفضل احيانا عديدة ترجمة اثنين او اكثر ، ينقل واحد من هؤلاء ثم يعيدها أو يراجعها اخر . في الترجمة الفردية تكون المسؤولية اكمل وبكل نقلها ووزنها ، الا انه في سبيل بلوغ هذه المنزلة يجب - عدا الامانة والاخلاص - ان يتخصص المترجم الواحد في نقل اثار متقاربة او تنسب الى ميدان واحد ، لان هذا أجدى واسهل على المترجم وأضمن لسلامة عمله وجودته ودقته ، واعتقد ان الاستاذ البعلبكي لم يعد الى حد ما عن هذه المبادئ الاساسية . واخيرا فهو يستحق الاحترام وعمله يفرض الاعجاب والتقدير ومترجماته توحى بالشاء والشكر . . .

علي زيور

المراهقين والعشاق ، والحب يتوجه الى الشخصية بكاملها وكليتها لا لوجود هذه أو تلك من الصفات ، تماما كما يقول علم النفس عن الحب بأنه لا يتجزأ وظاهرة كلية وطريقة من طرق المعرفة بل والمنطق ايضا .

اذن ينتهي الكتاب او القصة بحل ايجابي يشبع الرغبات والميول الخيرية والانفتاح على العمل والامل ويحقق الايمانية بايجابية الانسان وطيبته ، وحتى الاعمى يستعيد بصره ويعيش الجميع في ونام وهنساء لا جين وزوجها فقط، فينتهي الخط المتعرج الذي رسمته المؤلفة للاحداث، عند نقطة ترغب بها هي وتجسد امنيتها بالذات وقد يكون هو ما تم حقيقة وبالفعل . . .

ومن رأيي ان دراسة الترجمة بالذات أجدى وأنسب من الحديث عن المؤلف وكتابتها اذ ان هذا امر معروف يشهد الابداء بوجوده المتنازع، ثم ان الحكم على اعمال المترجم بشكل عام امر ضروري وواجب فاعماله ذات انواع متنوعة واصناف مصنفة وكثرة قد لا تستكثر على اديب جواد وتيد الخطي ورزينها كالاستاذ منير البعلبكي.

في البدء ، ان انتاج هذا الاديب الرجل عزيز يلفت الانتباه ويسترعي الاهتمام الزائد ، لا خليفة يكافىء ولا امير يود جذب الشعراء الى مجلسه . انه ينقل في « دار حكمة » يخصه هو بيته وبعد الانتهاء من عمله اليومي بالطبع الذي قد يهيء له الاجسواء المناسبة والاطر الضرورية اللائمة .

ويلاحظ وجود مخطط عام يتبعه المترجم في عمله ونشاطه فهو لا ينقل كيفما اتفق وبصورة عفوية انعكاسية ، بمعنى اننا نقدر على استكشاف نظرة الاستاذ البعلبكي او مفاهيمه للشؤون الفكرية . واطن انه لو لم يترجم ما ترجمه حتى الان واراد التأليف لما كتب الا في الميادين التي حرت فيها وفضلها واختارها . ان عمله متعدد الجنبات بالفعل الا انه قد يندرج تحت الابواب التالية :

١ - البأحية العربية والاسلامية :

وهذه هي النظرة الرئيسية عنده أو ان ذلك هو المهاد الفكري القائم على ايمانه بالحضارة العربية والتراث الاسلامي لها . وفي هذا المجال ترجم او ساهم مساهمة - اولى في تقديم « تاريخ الشعوب الاسلامية » للمستشرق الكبير كارل بروكلمان ، وفي اجزائه الخمسة بالتمام والامانة . وترجم أيضا « دفاع عن الاسلام » للمستشرفة فاغلييري و . . . ثم وعلى سبيل المثال فقط « الاملام والعرب » الكتاب الهام الذي ألفه روم لاندو ، أو كتاب النبي محمد لمولانا محمد علي فترجمة هذا الاخير اغناء وثروة وسد نقص و فراغ . .

٢ - سلسلة قصص انسانية :

وقد ترجم الاستاذ البعلبكي اثنين وعشرين قصة من الشواوخ العالمية ذات النزعة الانسانية، وامكن بهذا للقارئ العربي ان يطلع على كنسوز من الادب الذي لا يخص الاميركيين ولا الطليان او الفرنسيين والروس بقدر ما هو للانسان بوجه عام ، للانسان بالمعنى الاخلاقي للكلمة . .

ان منير البعلبكي عرف القارئ العربي وبشكل منظم وامين على الروائع الهامة لكبار الابداء العالميين:

هاورد فاست في المواطن نوم بين وديكنز في اوليفر تويست، وعرفنا ايضا على غوركي في : اسرة آرتامونوف ، حكايات من ايطاليا ، ذات ليلة من ليالي الخريف ، همنفواي : الشيخ والبحر ، تلوج كليمانجارو ، وداع للسلح .

كالدويل : طريق التبغ ، أرض المآسي ، أرض الله الصغيرة، بيت في المرتفعات .

شتاينبك : اقول القمر ، العاقر .

هذا عدا الترجمات الاخرى لجاك لندن « العقب الحديدية » ، وكفكا « المسخ » وبيبرل باك « الارض الطبية » .

انه ، كما يبدو عمل جم وافر بل هو نافع ومفيد للغة والادب العربي واكثر افادته للذهنية العربية والمجال التفكير العربي . وتلاحظ تلك العقلية التنظيمية في أعمال الاستاذ المترجم او الخطة التي يتبعها لاغناء المكتبة العربية بترجمته لبعض الخوالم من التراث الكلاسيكي ، فقد قدم لنا مثلا « قصة مدينتين » ووجود هذه عندنا ثروة واعتزاز . اما ترجمة